« فلسفة التاريخ » لهيجل

بقلم : على أدهم

مقدمة :

كان القرن التاسع عشر من العصور التى تقدم فيها العلم ، وقويت النزعة العقلية ، وكان كذلك عهد النزعة الرومانتيكية ، وعهد ازدهار البحوث التاريخية ، فقد حاول فيه المؤرخون اعادة خلق الماضى ، وعملوا على التغلغل الى أرواح العصور السالفة ، والأمم الخالية ، بطريق الخيال العاطف والبحث المستوعب ، وصارت الحاسة التاريخية عنصر من عناصر التفكير فى مختلف المشكلات والقضايا ، وعظمت بذلك قيمة التاريخ وتنوعت تفسيراته وفلسفاته .

وكانت ألمانيا منبع التيار الفكرى الذى أثر أكبر تأثير فى ثقافة القرن التاسع عشر ، ولمدة قرون كانت الحياة الثقافية فى أوروبا الوسطى تعتمد على حضارة الغرب الأكثر تقدما ، ولكن فى أواخر القرن الثامن عشر أخذت ألمانيا تقوم بدور هام مستقل فى حياة أوروبا الثقافية ، وقد شاهد الربع الأخير من القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر يقظة فكرية فى ألمانيا تسترعى النظر وتثير الدهشة ، وقد كان ذلك العصر عهد الأدب الألمانى الكلاسيكى ، ففيه ظهر جيتى وشيلر والحركة الرومانتيكية الألمانية ، وبلغت الموسيقى الذروة فى أعمال موزار وبيتهوفن ، وكان قبل كل شىء العصر الكلاسيكى للفلسفة الألمانية ، فقد كان كل عصر كانط وفشته وشلنج وشلير ماخر وهيجل وشوبنهاور .

وقد كانت هذه الثقافة الألمانية الجديدة متأثرة بثقافة عهد الاستنارة الفرنسى، ولكن روحها كانت تختلف كل الاختلاف عن نزعة الفلسفة الفرنسية العقلية ، وكذلك كانت تختلف عن التفكير النفعى العملى الذى غلب على المفكرين البريطانيين المعاصرين ، وقد ثارت بالتصور الآلى للكون ، وخرجت كذلك على التصور الرياضى للطبيعة ، وفكرة المذهب الفردى النفعى ، وآثرت المعرفة الحدسيةعلى التحليل العقلى فى تأمل الواقع ومحاولة ادراك كنه الحقيقة ، وحقيقة أن فشته وشلنج وهيجل أعلوا شأن العقل ، ولكن هناك فارقا كبيرا بين تصورهم للعقل وتصور أصحاب

النزعة العقلانية ، فالعقل عندهم ليس العقل الذى يعتمد على التحليل ، وانما هو العقل الأسمى المستقل عن التجارب الحسية ، فهو الذى يستطيع ادراك المطلق فى صفائه ونقائه عن طريق الحدس .

وقد قال النقادة المؤرخ الفرنسى تين منوها بهذه الحركة(١) « من سنة ١٧٨٠ الى سنة ١٨٣٠ أنتجت ألمانيا أفكار عصرنا التاريخى جميعها ، وسيكون عملنا العظيم لمدة نصف قرن وربما لمدة قرن كامل أن نعيد التفكير فى هذه الأفكار » .

وقد كان الفيلسوف الألمانى جورج ويلهلم هيجل من المفكرين البارزين فى هذه الحركة الفكرية العظيمة وهو فى رأى بعض العارفين الذين يعتد برأيهم أجل الفلاسفة الألمان شأنا ، وأبعدهم تأثيرا ، ويضعه البعض فى مستوى أرسطو وأفلاطون لقدرته الفائقة على تنسيق البناء الفلسفى ، وعمق تفكيره ، واتساع نطاق بحوثه ، وشمول نظراته ، وأصالة آرائه ، وقليل من الفلاسفة استغرق نضجهم وقتا أطول مما استغرق نضج هيجل ، ولكن قليلا منهم كذلك من تناول نواحى المعرفة المختلفة بمثل قدرته ، وآراؤه فى الفلسفة والفن والسياسة والتاريخ لا تزال من المراجع المأثورة .

حياة هجيل :

ولد هيجل فى شتوتاجارت عاصمة ولاية ورتمبرج فى ٢٧ أغسطس سنة ١٧٧٠ قبل ميلاد صديقه وضريبه فى الفلسفة الألمانية شلنج بخمس سنوات ، وبعد ميلاد الشاعر شيلر باحدى عشرة سنة ، وكلاهما مثله من ورتمبرج .

وقد امتاز سكان بخودسوابيا عن سائر الألمان بخصائص فى لهجتهم وأخلاقهم ، ففيهم مزيج من البساطة والحزم ، والحاسة الدينية وحرية التفكير النظرى ، وفيهم ميل الى التأمل النزاع الى التصوف

وقد لوحظ أن المفكرين الكبيرين اللذين أكدا حرية الانسان واستقلاله وجعلا «النفس» فوق ما هو « غير النفس » — وهما كانط وفتشه — كانا من أهل الشمال ، وأن المفكرين اللذين رأيا ترك المثالية ذات الجانب الواحد وسما بهما التفكير الى ادراك روحية العالم ووحدة الانسان معه ومع اخوانه البشر — وهما هيجل وشلنج — كانا من أهل الجنوب ومن مقاطعة سوابيا نفسها .

وينتمى هيجل الى أسرة ترجع أصولها الى جوهان هيجل الذى اضطره الى الخروج من مقاطعة كارنثيا فى النمسا اضطهاد النمساويين للبروتستانت فى أواخر القرن السادس عشر ، وفى خلال القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر شغل كثيرون من أفراد الأسرة وظائف مدنية متواضعة فى ورتمبرج وكان والده ضابطا فى خزانة المالية معروفا بمراعاة النظام فى عاداته وأسلوب حياته ونزعته المحافظة، ويبدو أن والدته التى فقدها وهو فى الثالثة عشرة من عمره كان لها نصيب موفور من الثقافة والذكاء، وقد ظل طوال حياته يحن الى ذكراها ويأسى على فقدها ، وكان له أخ يصغره التحق بالجندية ،وأخت وهى كريستيان ، وكان يؤثرها بوده ويحبوها بعطفه وكان منزل الأسرة يظله الهدوء البورجوازى وتسوده روح الأمانة والاقتصاد ، وأهم ما يشغل بال الأسرة هو تعليم الأطفال ، وبعد أن تلقى هيجل بعض المبادىء الأولية من والدته ألحق بالمدرسة فى الخامسة من عمره ، وفى السابعة أرسل الى المدرسة الاعدادية « الجمنازيم » فى بلده ، وعرف من أول أمره بأنه طالب مثابر على دروسه وحسن الاستعداد لتلقى شتى أنواع المعرفة ، ولكن دون أن يظهر

(١) صفحة ٣١٣ من المجلد الرابع من كتاب « تاريخ الأدب الانجليزى (الترجمة الانجليزية) طبعة شاتو ويندداس سنة ١٩٠٧

استعدادا خاصا فى ناحية من النواحى ، وظهر من باكورة أيامه ميله الطبيعى الى التنظيم والتنسيق الذى ورثه من أسلافه الموظفين المدنيين ، وكان « الطالب المجد الذى يحصل على الجوائز » ،وفى الرابعة عشرة من عمره بدأ يحتفظ بكراسة يدون فيها يومياته ، وكان يسجل بها تقدمه فى الدراسة وما يعن له من ملاحظات فى أثناء مطالعاته ، ويدرب نفسه فيها على الكتابة اللاتينية ، ويثبت بعض آراء أساتذته ، وكان أكثرها من الآراء التى شاعت فى عهد الاستنارة ، وماكان يلتقطه من كتب العلم والفلسفة وقد أشار فى هذه اليوميات الى مساوىء عدم التسامح وضرورة اعتماد الانسان على نفسه فى التفكير ، وعرض بالخرافات الشائعة ، ويرجع كتاب سيرته الى هذه اليوميات لمعرفة حالته النفسية فى تلك الفترة وتطوره الفكرى .

وكانت الدراسة التى عنى بها هيجل أشد عناية وخصها بالجانب الأكبر من اهتمامه هىدراسة الشعر اليونانى ، وكان لمآسى سوفوكليز تأثيرعميق فى نفسه، وكان يعتبر مسرحيةأنتيجون طرفة الشعر الدرامى ، وترجمها مرتين ، مرة ترجمة نثرية ومرة أخرى ترجمة شعرية وهو فى الجامعة ، وكان يرى فى الفن اليونانى نوعا من التوازن والاتساق بين الذات والموضوع ، وبين المثالى والواقعى ، وكان يقول لطلبته فيما بعد « حينما يذكر اسم بلاد اليونان يشعر الألمانى المثقف بأنه بين قومه وأهله وقد اتخذ الأوربيون دياناتهم — أى ماهو متسام وبعيد — من مصدر قاص ، من الشرق ، وبخاصة من سوريا ، ولكن ماهو ماثل عندنا وحاضر لدينا والفن والعلم — وكل مايجعل الحياة رضية ويسمو بها ويزينها نستمده مباشرة أو بطريقة غير مباشرة من بلاد اليونان » .

وعادة آخرى تعودها هيجل منذ عهد دراسته وظلت ديدنه طوال حياته ، ففى السادسة عشرة من عمره بدأ يكتب مختارات مطولة من كل كتاب يروقه وكان يجد متعة فى كل فروع العلوم التى أمكنه الوصول اليها واستطاع بذلك تحصيل طائفة كبيرة من مختلف المعلومات ، ولما كان يلتزم الدقة فى كل مايباشره من الأعمال لذلك استطاع أن يحسن فهم ما يقرأ ويقدر مزايا الكتاب الذين يتناول كتبهم وكان يذهب الى أن الثقافة الحقة تقتضى أن يقتصر الانسان فى بادىء الأمر على التلقى ، وبعد ذلك يجىء دور الفحص والنقد ، وقد أعجب باسلوب البيثاجوريين فى التربية ، وكان هذا الأسلوب يفرض على الطالب التزام الصمت مدة خمس سنوات، ويقول هيجل « واجب الصمت هذا شرط جوهرى لكل ضروب الثقافة والتحصيل ، وعلينا أن نبدأ بانماء قدرتنا على فهم أفكار غيرنا ومعنى هذا اغفال أفكارنا الخاصة ، وكثيرا مايقال انه يجب أن يثقف العقل من بادىء الأمر بالأسئلة والاعتراضات والأجوبة ، والواقع أن هذا الأسلوب لايمنح العقل ثقافة حقة وانما يجعله سطحيا موكلا بالظاهر دون الباطن ، ونحن بتحرى الصمت والاحتفاظ بأنفسنا لأنفسنا لانزداد فقرا فى الروح ، بل على نقيض ذلك نكتسب القدرة على فهم الأشياء كما هى فى الواقع ، وندرك أن الآراء الذاتية والاعتراضات ليست بذات قيمة »

وهى نصيحة بضرورة الحال يصعب اتباعها ، ولا تخلو من الخطر ، وقد تضر بالعقول الضعيفة التى لا تحسن رد الفعل على ماتحصل،ولكنها نافعة للعقول الكبيرة الراجحة التى تجيد الهضم ولا توهنها أعباء المعرفة ولايرهقها التحصيل .

وفى الثامنة عشرة من عمره ترك هيجل

الجيمنازيم الى الجامعة، وكان والداه يعدانه ليكون من رجال الكنيسة ،ولذلك أرسل الى معهد اللاهوت فى توبيخن ، وكان الطلبة فى هذا المعهد يخضعون لنظام لم يخل من الصرامة ، وكانت الدراسة تشمل اللاهوت والفلسفة ، وبطبيعة الحال كان للاهوت النصيب الأوفر ، ولم يكن بين أساتذة المعهد فى تلك الفترة من يصلح لأن يكون له تأثير دائم فى هيجل ، وبعض الأساتذة كان يعترف بكانط نجم الفلسفة الصاعد فى ذلك العصر ، ويتخذ فلسفته موضوعات للمحاضرة ، ولكن بعد تحوير أرائه وجعلها ملائمة لمبادىء النظام القديم الذى يسير عليه المعهد وقد تابع هيجل فى خلال ذلك دراسته الكلاسيكية وأضاف اليها دراسة بعض الكتاب المحدثين وبخاصة مؤلفات روسو التى كانت باعث الحركة المقبلة فى فرنسا وهى الثورة الفرنسية ، وكون هيجل واضرابه الأصغر منه سنا فى الجامعة ومنهم شلنج ـ ناديا سياسيا كانوا يتناولون فيه بالبحث آراء الثورة الفرنسية ويناقشونها ، وعرف هيجل بين رفاقه بشدة تحمسه لفكرة الحرية وفكرة الاخاء ، وكان هيجل فى تلك الفترة يميل الى المرح والفكاهة وكان محبوبا من أصدقائه الذين كانوا يلقبونه بالرجل العجوز ، وتوثقت علاقته بزميله شلنج وبالشاعر الشاب هيلدرلين ، وكان مثله ميالا الى الأدب اليونانى ، وقد درس هيجل معه أفلاطون وسوفوكليز ، وفى أواخر عهده فى الجامعة وجه عنايته الى الفلسفة ، وبخاصة من ناحية علاقتها باللاهوت ، وبعثه ذلك على دراسة مؤلفات كانط عن الأخلاق ، وقد ترك جامعة توبنجن سنة ١٧٩٣ .

وقد قضى هيجل ثلاث سنوات من السنوات الست التى تلت خروجه من جامعة توبنجن فى مدينة برن بسويسرة مدرسا خاصا لأحد أبناء الأسر الأرستقراطية ، وأمضى السنوات الثلاث الأخرى فى مدينة فرانكفورت مدرسا فى بيت جوجل أحد كبار التجارة بالمدينة ، وكان فى خلال ذلك دائم الاتصال بصاحبيه شلنج وهيلدرلين بطريق المراسلة مما جعله على دراية تامة بتقدم الحركة الفلسفية فى ألمانيا ، وقد كانت هذه السنوات الست هامة فى دراسته الفلسفية ، كانت المعارف والمعلومات الفلسفية التى حصلها تتصارع فى نفسه وتتفاعل لتاتئم وتتحد وتتكون من موادها المختلفة كل حى يبدو عليه طابع شخصية ويتسم بسمة عبقرية ، وقد انتقل من دراسة روسو الى دراسة كانط ، وقد ظل سنوات معنيا بوجه خاص بدراسة المسائل الدينية والأخلاق من الناحية الاجتماعية العملية ، لا من الناحية التجريدية الميتافيزقية ، وكان يحاول معالجة مشكلات الدراسات عن طريق الامعان فى دراسة التاريخ لا من الناحية الفلسفية ، ويمكن القول بأنه اتجه الى الفلسفة عن طريق محاولته تفسير التاريخ وفهمه ، وشغل فى بادىء الأمر بتاريخ الدين ، وبخاصة تاريخ أصول الديانة المسيحية وعلاقتها بالديانة اليونانية والدين اليهودى ، وفى أثناء ذلك كتب كتابا عن حياة السيد المسيح ووضع رسالة عن علاقة الدين الوضعى بالدين العقلى ، وكان فى هذه المحاولات ينظر الى الدين من ناحية علاقته بحياة الأمم الاجتماعية والسياسية ، وفى أثناء اقامته فى فرانكفورت اتجهت دراساته اللاهوتية بالتدريج الى البحوث الأخلاقية والاقتصاد السياسى ، وأخيرا الى العلوم الطبيعية والفيزيائية ، وفى السنة الأخيرة من اقامته فى فرانكفورت حاول أن يجمع نتائج بحوثه ويضمنها نسقا فلسفيا ،ومهما يكن من الأمر فانه لم يستطع ان يتم فى هذه الفترة

سوى الجزء الخاص بالمنطق وما وراء الطبيعة وفلسفة الطبيعة .

وفى هذه السنوات الست كان التصوران الغالبان على عقله والمرشدان له فى بحوثه هما فكرة الحرية أو حق تقرير المصير ، وفكرة أن حياة الانسان الطبيعية والروحية وحدة عضوية من العناصر لا يمكن فصل أحدها دون ان تفقد معناها وقيمتها ، وكان التصور الأول هو مبدأ القرن الثامن عشر العظيم الذى تعمقه روسو فى كتاباته وظهر فى مؤلفات كانط وفشته أخيرا ، والتصور الآخر بدا لهيجل فى حياة اليونان السياسية والدينية ، والصعوبة التى كان يواجهها هيجل فى تلك الفترة هى محاولة التوفيق بين هذين التصورين ، وينجلى صراعه مع هذه المشكلة فى أول كتاباته التى تحمل طابع عبقريته وكانت شدة احساسه بصعوبة هذه المشكلة هى التى دفعته الى البحث المتواصل فى التاريخ والعلم وبذل الجهد فى الوصول الى أعماق المعرفة التى يحصلها والوقوف على دخائلها المستترة .

وكانت فكرة الحرية كما أكدها عصر الاصلاح الدينى تنطوى على خلاف بين حياة الانسان الداخلية وحياته الخارجية أو بين الضمير والسلطة الخارجية أو بين الفرد باعتباره مقررا لمصيره فى تفكيره وعمله وخضوعه للمؤثرات والأشياء التى تؤثر أو قد تؤثر فى مصيره من الخارج ، وقد رفض لوتر ادعاء الكنيسة حق الوساطة بين الفرد والله ، وأعلن تحرير الانسان لا من سلطة الكنيسة فحسب بل فى الواقع من كل سلطة خارجية أيا كانت وحتى من كل تعليم أو كشف للحق يأتى من خارج النفس ، وذلك لأن المبدأ الذى أعلنه هو أن الحق الذى يؤمن به الانسان ينبثق من داخل نفسه ويؤثر فى كل عناصر حياته ، فاذا كانت المعرفة الحقة لله هى التى تأتى من داخل الروح وصميم النفس فان معنى هذا انه لا يمكن قبول أى نوع من الحق يأتى بطريق آخر ، واذا كان القانون المقدس الذى لا يخضع الانسان خضوعا مطلقا لسواه لا يكشفه للانسان سوى الهاتف الداخلى الذى يتفق مع صوت الضمير فان أى حكم قانونى أو سلطة حقة لا تكون صادرة من الخارج ، ولا نستطيع أن نعترف بوجود أى شىء فى الواقع الا اذا كانت له علاقة واضحة مفهومه بوعينا المباشر ، ولا نقر أى أمر يصدر الينا ونعده عادلا الا اذ كنا نطيع الجانب الأسمى فى نفوسنا حينما نطيعه ، أى أن لوثر بدأ حرب تحرير للانسانية لا تقف أرجاؤها عن الدوران الا اذا تخلصت النفس من كل مؤثر غريب عنها ، وهذه هى الفكرة الرئيسية التى سيطرت على حركة الحضارة الحديثة والتى انتصرت الحضارة فى المعارك التى خاضتها تحت رايتها سواء فى مجالات الفكر أم ميادين لعمل .

ولكن مبدأ الحرية هذا شوهته الخلافات التى تعرض لها وضيقت من نطاقه ، والفكرة التى تتخذ سلاحا فى الجدل والمعارضة تفقد جانبا من عالمينها وتستحيل نصف حقيقة ، والرأى القائل بأن لا شىء يستطيع أن يكون له سلطة أو حتى حقيقة واقعية بالقياس الى الانسان الا اذا كان قابلا لأن يكون ملكا له وجزءا من كيانه يمكن أن يكون معناه أن حقيقة الأشياء تكشف سرها لوعى الرجل المستوحش أو للطفل ، وان الرغبات المباشرة للرجل الطبيعى الذى لم تصقله الحضارة هى أسمى قانون ، وبدلا من أن يعرف الانسان واجب تعليم نفسه وتهذيبها وأخذها بمراعاة النظام العقلى والأخلاقى اللازم لتحصيل المعرفة يترك

له حق اصدار الحكم الخاص وهو ما يعادل اعلان فوضى الرأى الفردى ، وكانت كلما تقدمت معركة التحرير ظهر التناقض فى ذلك المبدأ الجديد جليا واضحا ، وأصبحت الحقوق والمطالب التى كان يرى توافرها « للانسان الروحى » أى للانسان بوصفه كائنا عقلانيا واعيا بوجوده وخليقا بالحياة العقلية والأخلاقية التى تسمو به وقادرا على التجربة الدينية التى تجمع شمله باللانهائى أصبحت تلك الحقوق والمطالب تطلب من أجل «الانسان الطبيعى» أى من أجل الفرد المحدود الذى لا يستطيع أن يتجاوز نطاق نفسه ولا يخرج من دائرة اهتماماته الخاصة فى الفكر والعمل ، ومن ثم هذا التناقض العجيب الذى نراه فى أدب القرن الثامن عشر فهو من ناحية يشيد بقيمة الفرد ويكاد يرفعه الى مرتبة الآلهة من ناحية ، ومن ناحية أخرى يجرده من كل الأغشية التى تستر حيوانيته ، والعجيب أن العصر الذى أكدت فيه حقوق الانسان أقوى تأكيد هو العصر نفسه الذى هبطت فيه الطبيعة الانسانية الى أنزل المستويات ، فعصر التسامح وحب الانسانية والاستنارة هو كذلك عصر النزعة المادية والفردية والشكوكية ، ومصدر ذلك كله هو التطور السلبى للحرية الانسانية .

وحينما اخذ الانسان يحمى نفسه وينبذ كل علاقة بما كان يبدو له خارجا عن نفسه فقدت الأفكار الدينية والاجتماعية السابقة سيطرتها عليه ، وحلت محلها فكرة مجردة عن المساواة والاخاء ، ولكن هذه الفكرة كانت أضعف من أن تستطيع كبح جماحه وقهر شهواته ، وهكذا نجم عن اعلان الدين الطبيعى للانسان وتأكيد حقوقه ذلك المبدأ الذى أحال الانسان فردا حيوانيا خاضعا لأحاسيسه وعبدا لشهواته ونزواته غير صالح للدين والآداب ، لأن الدين والآداب يدلان على علاقة محددة بين الناس وبين الله ، وقد نبذت كل هذه العلاقات باعتبارها غير متمشية مع حرية الفرد .

وقد حاول روسو وكانط توسيع فكرة الحرية المجردة وادخالها فى نسق اجتماعى دون أن يغيرا من طبيعتها السلبية ، وقد رأى روسو أن الحقوق المطلوبة للفرد يجب أن تقوم على شىء فيه أسمى من طبيعته الفردية ولذلك تحدث عن العقل العام المشترك والارادة العامة ، وهى مختلفة عن عقل الأفراد وارادتهم ، وهى تجعلهم قابلين للاجتماع ، ولكنه كان يرى أن هذا العقل العام والارادة العامة عاملان مشتركان فى طبائع يختلف بعضها عن البعض الآخر ولا يراهما بوصفهما مبدأ يضم الجميع تحت رايته برغم ما بينهم من وجوه الاختلاف ، ولذلك لم يستطع أن يصل الى تصور عضوى للوحدة الاجتماعية .

وكانط كذلك رأى فى الشعور بالنفس عنصرا مشتركا بين الناس يمكن أن يجعل اجتماعهم ممكنا كما وجد فى فكرة حق تقرير المصير أى حق اختيار ما يلائم طبيعة الانسان — مبدأ الآداب جميعها ، ولكنه لم يستطع كذلك أن يظهر أية علاقة بين هذه الفكرة العامة ورغبات الانسان وكفاياته التى تحتم العلاقات الخاصة بين الناس وبينهم كذلك وبين الدنيا ، ولذلك ظل مذهبه الاخلاقى جسدا بغير روح .

وقد تناول هيجل المشكلة الفلسفية من هذه الناحية ، وهو بوصفه يدين بالمذهب البروتستانتى يرى أن فكرة الحرية القائمة على أن الانسان فى تفكيره وعمله يلزم أن يقرر مصيره بنفسه وأن يحقق وجوده فى الغاية التى يحبس عليها جهوده يراها من

الأفكار الأساسية التى لايحيد عنها ، وقد قبل هذه الفكرة وهو فى الجامعة مدافعا عن الحرية والاخاء فى صورتهما الثورية ، ولكنه سرعان ما اختفت النغمة الثورية فى حديثه عن الحرية ، ولكن ظل مخلصا للمبدأ الكامن وراء ذلك ، وهو نبذ كل قيد لأفكار الانسان أو أعماله ، وقد وجهت الى هيجل فى الجزء الأخير من حياته تهمة الرجعية السياسية ، وفى الحق أنه صار يميل الى جانب المحافظين فى سياسة بروسيا ، ولكنه مع ذلك لم يغير اعتقاده فى أن الحرية هى أساس حياة الانسان السياسية والروحية ، وفى احدى محاضراته الأخيرة أعلن أن لوثر بتأكيده ان كل انسان عليه أن يبحث بنفسه عن الحق قد وضع أساس الفكرة التى أصبحت المرشد الهادى للأجيال التالية لعهده ، واذا كان قد ناصب عهد الاستنارة العداء فما كان ذلك الا لأنه كان يفسر فكرة الحرية تفسيرا أشمل وأعمق من تفسير عهد الاستنارة لها .

وهو يعارض كانط فى اقامته الآداب على أساس عقلى محض ، ويرى أن الآداب التى تخاطب العقل وحده لاتستطيع أن يكون لها تأثير عملى فعال فى جماهير الناس ، ويرى ادوارد كيرد أن سبب اعتراض هيجل على آراء كانط فى الآداب هو فرط تأثره بفكرة الديانة القومية التى توفق بين الخيال والقلب وبين العقل وهى فكرة مستمدة من اليونان ، وقد رأى هيجل أن اليونان استطاعوا فى حياتهم أن يوفقوا بين العام والخاص وبين العقل والمشاعر .

وفى أثناء اقامته بسويسرة كتب فصولا يمكن أن تسمى دراسات للديانة اليهودية والديانة المسيحية من وجهة النظر اليونانية ، وكانت الديانة اليهودية فى رأى هيجل مثلا للديانة غير الطبيعية التى لاعلاقة لها بحياة الناس الذين فرضت عليهم وعنده أن اليهود أمة لم يكن انتقالها من حياة أدنى الى حياة أسمى خاضعا لتطور طبيعى ، وانما كان نتيجة تطير عنيف أرغموا عليه من الخارج ، والانتقال من حياة الرعاة البسيطة الى نظام الدولة المعقد لم يأت عندهم بالتدريج وبدافع من أنفسهم ، وانما جاء نتيجة تأثير أجنبى ، فقد دفعت بهم الظروف واستنفزهم الى الحركة تفوق رجل عظيم ، وأرغموا على الكفاح من أجل الاستقلال ، ولم يكونوا بعد قد توفرت لهم الغاية السياسة الحقيقية ، ولذا لم يستطيعوا أن يصنعوا لأنفسهم توازنا شريفا بين الحياة الطبيعية والحياة الروحية .

وكون هيجل قبل مبارحة فرانكفورت أقسام فلسفته الثلاثة ، وكان الجزء الأول يشمل المنطق وما وراء الطبيعة ، والجزء الثانى تناول فلسفة الطبيعة والجزء الثالث تناول فلسفة الروح التى تتوحد فيها الخلافات وتصطلح المتناقضات .

وفى سنة ١٨٠٠ وكان قد وضع أساس فلسفته وفكرتها الرئيسية وبدأ تطبيقها بطريقة منظمة أخذ يفكر فى الموازنة بين أفكاره وأفكار غيره من معاصريه ، فاستأنف المراسلة مع شلنج وكان قد ترك مراسلته منذ سنوات وأخبر صديقه القديم أنه مستعد أن يقوم بدوره فى المعركة الفلسفية ، وكان والده قد توفى سنة ١٧٩٩ وتسلم مبلغ ثلاثمائة جنيه نصيبه فى تركة أبيه ، فاستطاع أن يستغنى عن التعليم حينا من الزمن ، وقال لشلنج انه تابع تقدمه فى سرور واغتباط وانه كذلك بدأ يشق طريقه فى عالم الفلسفة .

وفى سنة ١٨٠١ جاء الى ينا ليكون بجانب شلنج فى الدفاع عن فلسفة الذاتية ، وفى السنة نفسها ظهر أول مؤلف له مطبوع ، وهو « الفرق

بين مذهب فشته ومذهب شلنج » وقد دافع فى هذاالكتاب عن مذهبشلنج وكتب بعد ذلكرسالة فى موضوع لم يطرقه شلنج ولكنها أكدت معذلك اتفاقه التام مع وجهة نظر شلنج مما بعث احدى الجرائد على أن تذكر أن شلنج جاء بأحد زملائه من ورتمبرج ليدافع عنه ويعمل تحت قيادته ، وقد رد هيجل فى شىء من العنف على هذا الاتهام •

وفى سنة ١٨٠٢ اتفق مع شلنج فى اصدار « المجلة الانتقادية » وكانت الفصول التى كتباها لهذه المجلة موحدة الهدف الى حد أنه أصبح من الصعب فيما بعد تمييز الفصول التى كتبها هيجل من الفصول التى كتبها شلنج ، وكان ذلك مدعاة لاثارة المناقشات بعد موت هيجل .

وكانت وجهة النظر التى اتفق فيها الاثنان حينذاك هى فيما سمى فلسفة الذاتية ، وقدتصدت هذه الفلسفة لمقاومة ثنائية العقل والمادة أو الموضوع والذات واعتبارهما منفصلين بعضهما عن البعض كل الانفصال ، وقاومت كذلك الفلسفة الذاتية عند كانط وعند فشته وقد عبر كانط عن فكرة اتحاد الموضوع والذات والاحساس والفكر، ولكنهما لم يعملا بما فيه الكفاية على انماء هذه الفكرة ، أو عملا ولكن بطريقة ذاتية ، فعند كانط المظهر الموضوعى هو القابل للمعرفة فى حين أن الموضوع الواقعى كان بعد الشىء فى نفسه ، وهو شىء لاتستطيع معرفته الذات ، والذات نفسها كانت تعد غير قادرة على الوصول الى مايتجاوز الحواس والحوافز أى مايتجاوز دائرة حياتها الداخلية ،وفلسفة فشتهتنكر وجود أشياء مستقلة بذاتها فى خارج دائرة المظهر الذاتى وتلغى مكانة اللاأنا وتحيلها الى حالة سلبية تحقق الانا حياتها خلالها ، وقد أدى مذهبفشته الى استبعاد الموضوع والانحصار فى الذات(الأنا) وتصورها فى معركة مع نفسها التى لاتستطيع أن تتجاوزها •

وفى صيف سنة ١٨٠٣ انتقل شلنج من ينا ، ووضع هذا الانتقال حدا للاتفاق بين الصديقين ، والواقع أن بذور الاختلاف الفكرى بينهما كانت قد بدأت تظهر بوادرها فى الاعداد الأخيرة من مجلة النقد التى اشتركا فى تحريرها ، وظل هيجل يعمل مدرسا خاصا حتى سنة ١٨٠٥ التى عين فيها استاذا فى جامعة ينا وكتب فى تلك الفترة أول كتبه الهامة وهو كتاب «ظاهريات الروح أو العقل» وقد حاول فى هذا الكتاب أن يبين المراحل المختلفة للوعى التى تبدأ من مرحلة الوعى الحسى البدائى الى مرحلة الوعى الفلسفى الكامل ، ولمقدمة هذا الكتاب أهمية خاصة لأنه خرج فيها على فلسفة شلنج ومدرسته دون أن يذكر اسمه .

وقبيل معركة ينا الفاصلة دخلت الجنود الفرنسية المدينة وشرعت فى النهب والسلب ، ولما ساءت الحالة فى المدينة حمل هيجل الصفحات الأخيرة من كتابه « ظاهريات الفعل » وترك منزله لرحمة القدر ، ولجأ الى منزل كان فى حماية أحد الضباط الفرنسيين، وعاد الى دارهبعد انتهاءالمعركة وساءت أحواله المعيشيةفى هذه الظروف الحرجة لأن الحرب دمرت جامعة ينا وتركته خالى الوفاض حتى اضطر الى اصدار جريدة فى بامبرج ، وبعد سنة عين عميدا فى معهد نورنبرج وتزوج سنة ١٨١١ وفى أثناء اقامته فى نورمبرج ، أخرج كتابه العظيم عن المنطق ، ولم يكن هيجل راضيا عن عمله فى الجيمنازيم ولذلك سعى ليكون أستاذا فىاحدى الجامعات ، وكانت شهرته قد أخذت تعلو وتوقفت علاقاته بكثير من الكتاب والمفكرين ، وفى سنة

١٨١٦ قبل دعوة جامعة هيدلبرج وبدأ بها محاضراته عن الفن ولكن جهده كان موجها الى كتابة الموسوعة الفلسفية وفى سنة ١٨١٨ عين أستاذا للفلسفة فى جامعة برلين وظل بها حتى توفى فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٣١ أثناء الوباء الذى انتشر فى صيف سنة ١٨٣١ ببرلين .

هيجل وفلسفة التاريخ :

تعد محاضرات هيجل عن فلسفة التاريخ مقدمة صالحة لدراسة فلسفته ، وقد جمعت هذه المحاضرات وقدمت للطبع بعد وفاة هيجل .

وهو يرى أن هناك ثلاث طرائق فى تناول التاريخ:

١ ـ التاريخ الأصلى .
٢ ـ التاريخ النظرى .
٣ ـ التاريخ الفلسفى .

١ ـ وهو يضرب مثلا للنوع الأول تاريخ هيرودوت وماكتبه توكوتيدس وأمثالهما من المؤرخين ، ويقتصر عمل هؤلاء المؤرخين على وصف الأعمال والأحداث وأحوال المجتمع الماثلة أمام عيونهم وهم بذلك ينقلون ما يحدث حولهم الى عالم التصور العقلى ، وبذلك يتحول من مظهر خارجى الى تصور داخلى ، وكذلك يصنع الشاعر من المادة التى توافيه بها عواطفه ومشاعره صورة يقدمها لموهبة التصور ، وهؤلاء المؤرخون الأصليون يجدون تحت أيديهم وصف الأحداث الذى كتبه غيرهم اذ لايستطيع انسان بمفرده أن يرى كل شىء ويسمع كل شىء ، وهم يستبعدون الأساطير والأقاصيص الشعرية التى تتعلق بها الأمم قبل أن ينضج وعيها وتسمو ثقافتها ، وأمثال هؤلاء المؤرخين يصفون مشاهد لعبوا فيها دورا أو عنوا بمراقبتها ، ولا يتناول سردهم للأحداث فترات طويلة ، وهدفهم أن يقدموا للذين يخلفونهم صورة للأحداث واضحة وضوح الصورة التى شاهدوها، وليس من عملهم اجالة الفكر فى تلك الأحداث لأنهم يعيشونها ولم يرتفعوا فوق مستواها ،وحقيقة ان مؤرخا مثل توكوتيدس قد عزا خطبا الى بركليز وهى من انشائه ، ولكن هذه الخطب لم تكن بعيدة عن شخصيته المعزوة اليه ، وهى تبين الاتجاهات السياسية والاخلاقية السائدة فى عصرها ، ومن أمثلة هذا النوع من التاريخ « المذكرات » ، وأكثرها يكتبها رجال بارزون ، وقد تكون دائرة اهتماماتهم ضيقة والحوادث التى يشغلون برواياتها ليست بذات قيمة كبيرة ولكنها مع ذلك تلقى ضوءا على التاريخ مثل مذكرات الكاردينال دى رتز ، واذا كان كتاب هذه المذكرات من الذين شغلوا مناصب سامية ووقفوا على دخائل كثير من الأمور فانهم يستطيعون أن يقدموا للتاريخ معلومات قيمة تجلو بعض غوامضه وتكشف جانبا من أسراره الخفية .

٢ ـ والنوع الثانى من التاريخ هو التاريخ النظرى ، ولا يقتصر فيه المؤرخ على رواية أحداث عصره وماشاهده بعينيه وكان حاضر أمره ، وانما غرض المؤرخ فى هذا النوع من الكتابة التاريخية أن يذكر تاريخ أمة من الأمم أو قطر من الأقطار والعمل الرئيسى للمؤرخ فى هذه الحالة هو جمع المادة التاريخية ، ومما له اعتبار هام فى أمثال هذا اللون من الكتابة التاريخية المبادىء التى يشير اليها المؤلف وتفسيره للبواعث على الأعمال والأحداث التى يرويها ويصفها ، وطريقته فى سرد الأخبار ، وكل مؤرخ يختار له وجهة نظر خاصة وأسلوبا معينا فى الكتابة ،وهذا النوع من التاريخ النظرى يقترب من التاريخ الأصلى حينما يكون

غرض المؤرخ عرض الحوليات كاملة ، ومن أمثال هذه الأخبار المجموعة مؤلفات ليفى وديدور الصقلى وبعض هذه الأخبار المجموعة يقدم صورة للاحداث من الوضوح بحيث يظن القارىء أنه يستمع الى الذين اشتركوا فيها ويكاد يراها رأى العين ،ولكن فى أغلب الأوقات يدرك القارىء أن جامع الأخبار ينتسب الى ثقافة مخالفة وعقلية عصر آخر غير العصر الذى يسرد أخباره ويروى حوادثه ،ويبدو هذا فى كتابات ليڤى فهو يروى على أفواه ملوك الرومان القدامى وقوادهم وقناصلهم خطبا شبيهة بالخطب التى كانت تلقى فى عصره ، ويصف لنا المعارك كأنه كان حاضرها ، ولكن الملامح التى يصفها تصلح لوصف أى معركة فى أى عصر من العصور ، ويرينا هذا الفرق بين المؤرخ الأصلى وجامع الأخبار .

والنوع الثانى من التاريخ النظرى يسميه هيجل « التاريخ البراجمانيكى » وهو التاريخ الذى يحاول الافادة من الماضى ، ويتلقى منه الدروس العملية ، ويستخرج العبر من وقائعه ، ويقول هيجل ان أمثلة الفضيلة قد تسمو بالروح وتصلح فى تلقين المواعظ الاخلاقية للأطفال،ولكن مصائر الأمم والدول واهتماماتها وعلاقاتها من الأمور المعقدة ، وكثيرا ما ينصح الحكام ورجال السياسة بالاستفادة من دروس التاريخ ، ولكن التجربة والتاريخ كما يرى هيجل يعلماننا انه لا الحكومات ولا الأمم قدتعلمت شيئا من التاريخ، فكل عصر له ظروفه الخاصة التى ينبع فى علاجها اعتبارات خاصة به ، والمبادىء العامة لا تعين حينما يشتد ضغط الحوادث العظيمة،ولا فائدة فى هذه الحالة من الرجوع الى الظروف المشابهة فى الماضى ، ولم يكن هناك شىء أكثر سطحية من الرجوع الى أمثلة فى تاريخ اليونان والرومان أثناء الثورة الفرنسية ، ولا شىء أكثر تنوعا واختلافا من عبقرية الأمم الماضية وعبقرية عصرنا ، وقد حاول المؤرخ يوهانس فون ميللر ان يقدم مجموعة من الحكم السياسية لتعليم الأمراء والحكومات والشعوب ، ولا يعد هذا من خير أعماله ، ومواد التاريخ النظرى عرضة للتفسيرات المختلفة ، وكثيرا ما يمل القراء هذا النوع من التاريخ النظرى ويؤثرون قراءة التاريخ الذى يروى الحوادث دون أن يتخذ وجهة نظر خاصة

والنوع الثالث من التاريخ النظرى يطلق عليه هيجل اسم « التاريخ الانتقادى » وهو يصح ان يسمى تاريخ التاريخ ويقوم على نقد المدونات التاريخيه واصطناع الدقة فى الاطلاع على الوثائق والسجلات .

والنوع الرابع من التاريخ النظرى أشق امعانا فى التجريد من النوع الثالث ويتناول وجهات نظر عامة ويحاول أن يتعمق الوقائع ، ومن أمثلته تاريخ القانون وتاريخ الفن وتاريخ الدين .

(٣) والطريقة الثالثة هى التاريخ الفلسفى ، ويرى هيجل أن خير تعريف لها هو أن فلسفة التاريخ ليست سوى تدبر التاريخ واجالة الفكر فيه ، ويرى هيجل أن الفكر جوهرى للانسانية وأنه هو الذى يميز الانسان من الحيوان ، وحينما نقبل على التاريخ وهذه الفكرة ماثلة فى أذهاننا قد يظن أننا ننظر الى التاريخ باعتباره مادة قابلة لأن تفرض عليها أفكارنا ، فى حين أن عمل المؤرخ يسجل ما كان وما وقع من الأحداث ، ولكن الفكرة التى تسترشد بها الفلسفة فى تأمل التاريخ هى مجرد تصور العقل ، فالعقل هو الذى تساس به أمور الدنيا . ولذلك يمثل لنا تاريخ الدنيا حركة

عقلية ، والعقل هو الجوهر والقوة غير المحدودة، وهو نسيج الحياة الطبيعية والحياة الروحية ، وطبيعة الروح مكونة من الحرية ، وحرية الروح قائمة على شعورها بالوعى الذاتى ، فالروح تشتمل على نفسها وعلى الطاقة التى تمكنها من تحقيق نفسها ، أى أن تبرز عمليا ما هو كامن فيها « بالقوة » ، وبمقتضى ذلك يمكن أن يقال عن التاريخ العام انه مظهر وعرض للروح وهى تتعرف ما هو موجود فيها بالقوة .

وكما تحمل الجرثومة كل طبيعة الشجرة وطعم الفاكهة وشكلها كذلك الآثار الأولى للروح تتضمن تاريخها جميعه ، وأهل الشرق القدامى فى رأى هيجل لم يصلوا الى معرفة ان الحرية للجميع ورأوا أن الحرية تتمثل فى فرد ، والحرية فى مثل هذه الحالة تكون عرضة للنزوات والانطلاق بغير كابح ، ولم يظهر الشعور بالحرية الا عند الاغريق، ولكن الاغريق والرومان رأوا أن الحرية مقصورة على البعض ولا تشمل البشر جميعهم ، وحتى أفلاطون وأرسطو كانا يذهبان هذا المذهب ويدينان بهذا الرأى ، ولذلك كان نظام العبودية سائدا فى بلاد اليونان ، وقد أضر ذلك بقضية الحرية الانسانية ضررا بليغا ، وقد كان الألمان كما يرى هيجل أول قوم أدركوا تحت تأثير المسيحية أن الحرية للناس جميعا وأن الحرية هى جوهر الروح، وقد ظهر هذا الشعور أول ما ظهر مقترنا بالدين ولكن جعل الحرية من المبادىء التى يؤخذ بها كان يستلزم حركة تثقيف عنيفة طويلة المدى ومما يثبت ذلك أن نظام العبودية لم يختف حين ظهرت الديانة المسيحية ، وليس تاريخ الدنيا سوى تقدم الشعور بالحرية ، ولكن ما هى الوسائل التى يتخذها مبدأ الحرية لتحقيقها ؟ والاجابة عن هذا السؤال تستلزم الرجوع الى التاريخ ، والنظرة الأولى للتاريخ ترينا أن أعمال الناس باعثها حاجاتهم ، وأن العواطف والأهواء والميول هى التى تحركهم ، وقد نجد بين هذه البواعث أهدافا حرة كريمة خيرة ولكن اذا نظرنا نظرة عامة نجد أن هذه البواعث النبيلة نادرة قليلة الحول اذا قورنت بالبواعث الأخرى السائدة فى العالم ، فارضاء الميول والأهواء واشباع الشهوات هى أقوى البواعث على الأعمال ، ومصدر قوتها أنها لاتقيم وزنا للحدود التى تفرضها العدالة وتقرها الأخلاق، وهذه الحوافز الطبيعية أمضى تأثيرا فى الانسان من النظم المصطنعة التى تحاول رد عادية الانسان وكبح شرته ، وحينما نرى انطلاق الاهواء الجامحة وتنائج عدوانها وشرها ومجانبة العقل التى لا تفترق بها فحسب بل قد تصحب كذلك الأغراض الطيبة والنيات الصالحة وحينما نرى الشر والرذيلة والخراب الذى يصيب البلاد المزدهرة حينما نرى ذلك كله تملأ رؤية هذا الفساد نفوسنا أسى وحسرة ، ولما كانت تبعة هذا التخريب والهدم تقع على كاهل الانسان والطبيعة منه براء لذلك قد يثير تأمل هذه الحالات الأرواح الطيبة، والخطوب التى أصابت أنبل الأمم والحضارات وأنقى الناس فضيلة تحرك أعمق العواطف ، وتثير الحزن الذى ليس له ملطف ولا سلوان ، وفى مشاهدتنا لتلك الأحداث المروعة التى لا نستطيع تسويغها أو الفرار من مواجهتها لا نجد سوى اعتبارا واحدا ، وهو أن هذه الأحداث كانت محتومة ، وقضاء مبرما لا دافع له ولا حيلة فيه ، وأنه قدر لا يرد .

ولكن اذا اعتبرنا التاريخ مجزرة يضحى فيها بسعادة الأقوام وحكمة الدول وفضيلة الأفراد

فاننا نواجه سؤالا آخر ، وهو ، ما هو الغرض النهائى التى تقدم من أجله كل هذه التضحيات ؟ ان الفكرة والخصائص المجردة مسلوبة القوة ، والقوة التى تحركها وتدفعها الى العمل هى الحاجة والغريزة والميل والهوى ، ولا تعنى الناس بشىء الا اذا كان لهم فيه وجه من وجوه الانتفاع ، ولا يتم انجاز شىء من الأشياء مالم يكن للقائمين به فائدة تعود عليهم ، ويؤكد هيجل انه لم يتم انجاز شىء عظيم فى هذه الدنيا دون ان يكون للعاطفة والهوى والميل أعظم الأثر فى انجازه ، فالفكرة والعاطفة هما لحمة التاريخ وسداته ، وتاريخ العالم لم يكن مسرحا للسعادة ، والأيام السعيدة فى تاريخ البشرية خالية الصفحات ، والناس تشبع رغباتها وتبقى ما ينفعها وتعمل على تحقيق غاياتها الخاصة تبعا لميولها الطبيعية ،ولكنهم فى خلال ذلك يشيدون بناء المجتمع ، ويوطدون أركان النظام والعدالة ، أى أنهم يحققون شيئا لم يكن يخطر لهم على بال وكان يتجاوز نطاق تفكيرهم ، ولأعمالنا نتائج تجاوز تقديراتنا ، ويبدو ذلك واضحا فى الدور التاريخى الذى تلعبه الشخصيات التاريخية الكبيرة البارزة فى تاريخ العالم ، فيوليوس قيصر كان يخشى ان يفقدمكانته وايهان سطوته فعمل على دعم نفوذه ، ومكنته انتصاراته من بسط سيادته على أنحاءالامبراطورية المترامية ، وأن يكون حاكما أوتوقراطيا ، وكان العصر ناضجا لقبول هذا النظام ، واستساغة هذا التحول فى نظام الحكم الرومانى فلم يكن الأمر مجرد كسب شخصى ليوليوس قيصر ، وانما حقق قيصر خلال سعيه وراء مصلحته الخاصة ما كانت تتطلع اليه روح العصر ويستلزمه الموقف التاريخى ، وهذا هو الدور الذى يقوم به ابطال التاريخ فى شتى العصور ومختلف المواقف والمناسبات ، وهؤلاء الأبطال لا يدركون الفكرة العامة التى يعملون على تنفيذ رغبتها دون ان يشعروا ، ولكنهم برغم ذلك كانوا رجالا عرفوا مطالب عصرهم ، وعملوا على تلبية هذه المطالب، ووقفوا على تحقيقها جهودهم ، واتباعهم وأنصارهم الذين يسيرون خلفهم كانوا يشعرون بدافع خفى قوى يحفزهم الى السير تحت رايتهم، واذا نظرنا الى مصائر أمثال هؤلاء الأبطال التاريخيين الذين قاموا بتنفيذ ما تطلبته روح العصر فاننا نجد أنها لم تكن سعيدة ، فهم لم يعرفوا الراحة ، وكانت حياتهم كفاحا لا نهاية له، وكانت العاطفة المستولية عليهم لا تدع لهم فرصة للاخلاد الى الهدوء والتوقف عن الحركة الدائبة وبذل الجهد المتصل ، وحينما يتحقق الهدف الذى تطلبته روح العصر ينتهى دورهم ، وتنقضى الحاجة الى وجودهم ، فيموت أحدهم فى ميعة الشباب مثل الاسكندر المقدونى ، أو يقتل مثل يوليوس قيصر أو ينقل الى سانت هيلانة مثل نابليون ، وهؤلاء الأبطال يبتغون تحقيق هدف عظيم ، وفى سبيل تحقيقه قد تطأ أقدامهم الكثير من الازهار البريئة وتحطم فى طريقها أشياء كثيرة .

والعاطفة والميل والهوى غير منفصلة عن « الفكرة » العامة فى تقدمها وتطورها وهى تظل كامنة فى الخلف وغير معرضة للدفع والجذب والأخذ والرد ويسمى هيجل اثارة الفكرة للعواطف والأهواء واستغلالها لتحقيق غاياتها « مكر العقل » الذى يضحى بالأفراد فى سبيل الفكرة العامة ، فالأفراد هم وسائلها الى تحقيق غاياتها ، وفى تأملنا مصير الفضيلة والأخلاق والتقوى فى التاريخ قد نميل الى الاعتقاد أن

الصالحين والاتقياء لا تخلو حيــاتهم من الهموم والأكدار ، وأن الأشرار المنــاكيد السيئى النية أحوالهم راغدة ومعيشتهم هائئة ، ولكن حينمــا ننظر الى غاية الوجود نرى أن مواتاة الحظ لبعض الأفراد أو اساءته الى الآخرين ليست من الأمور الجوهرية ، والذى يثير حنق الناس ويجعلهم غير قانعين بأحوالهم هى أنهم لا يجــدون حاضرهم صالحا لتحقيق الأهداف التى يعتقدونها حقــا ويرونها عادلة ، ويوازنون بين الواقع وما يتطلعون اليه ، وفى هذه الحالة لا تكون أهواؤهم هى التى تملى عليهم ولا الحرص على اشــباع الشهوات ، وانما باعثهم العقل ونشدان العدالة والحــرية وقد يدفعهم هذا الشعور الى الثــورة بالأحوال السائدة .

والعقل الذى يتخلل الحركة التاريخية يهدف الى الخير انعام ، وكشف الأخطاء فى حيـــاة الأفراد والدول أيسر من تبين المضمون الهـــام والقيمة الحقيقية ، وتقدم الناس فى السن يجعلهم أكثر اعتدالا فى اصدار الأحكام ، والشبان دائما يغلب عليهم التذمر ، والاعتدال الذى يرافق تقدم السن باعثه نضج القدرة على الحكم على الأشياء وليست القناعة بالدون وقبول الواقع ، والتجارب تعلم الانسان التفريق بين الأشياء الجــوهرية والأشياء العارضة ، وتعلمنا الفلسفة فى نهــاية الشوط ان العقل العام المقدس ليس مجرد وهم من الأوهام وانما هو مبدأ حيوى قوى التأثير يتابع تنفيذ مخططه فى تاريخ البشرية العام ،والفلسفة تحاول تعرف هذه الخطة ، وقد يلحق الفســاد الصور والأشكال التى تتخــذها الأديان والآداب ولكنها فى جوهرها غير محدودة ولا نهائيــة ، ويقول سوفوكليز فى مسرحية انتيجــون « ان الأوامر العلوية المقدسة ليست ابنــة الأمس أو اليوم ، ان وجودها لا نهائى ولا يستطيع انسان أن يعــرف متى جاءت » وقوانين الآداب ليست شيئا عارضا ، وانما هى شيء جوهرى معقول ، والهدف الذى ترمى اليه الدولة هو الابقاء على كل ما هو جوهرى فى جهود الانسان واظهــــاره والاعتراف به ، ولا يحقق الانسان الحرية الا عن طريق الدولة ، والدولة فى رأى هيجل هى الفكرة المقدسة كما تظهر فى عالمنا ، ويظهر فيهــا هدف التاريخ فى صورة أكثر تحديدا من ذى قبــل ، والارادة التى تساير القــانون هى الارادة الحرة لانها فى أطاعتها للقانون تطيع ذاتها ، فهى من ثم حرة ومستقلة ، وحينما يتم تكــوين الدولة ، وتخضع الارادة الذاتية لقوانينها يزول الفرق بين الحرية والضرورة ، وتتفق الارادة الخاصــة مع الارادة العامة ويرفض هيجل الرأى القــائل ان الانسان حر بطبيعته ، وان المجتمع والدولة يحدان من حريته ، والقول بان الانسان حر بطبيعتـــه فيه جانب من الحق ، وانما المعنى الحقيقى له هو أن الانسان فيه القدرة على ان يكون حرا،ولكن على شريطة انماء هذه القدرة واظهارها ، وحينما يقال ان الانسان حر بطبيعته فان ما يتبــادر الى الأذهان هو أنه يملك الحرية وحقوقه الطبيعيــة وممارسة هذه الحرية دون أن يعوقها عائق،ولا يرتفع هذا الادعاء الى مستوى مرتبة الحقائق التاريخية، فمن الصعب أن نعثر على مثل هذه الحــالة فى تاريخ البشرية ، ويمكن أن تشير بطبيعة الحال الى حالة الانسان وهو فى حالة الحياة الهمجية ،ولكن الحياة الهمجية تكثر فيها أعمال العنف ، وتتسم بالأهواء الوحشية العارمة التى تحد من الحرية ، والحرية لا تأتى الينا منقادة فى يسر تجر أذيالها

وانما يعمل من أجل الحصول عليها ونيلها،والحالة الطبيعية يغلب عليها الأعمال غير الانسانية ، والنوازع المنطلقة بغير كابح ، والمجتمع والدولة يضعان حدا لطغيان الغرائز ، ووحشية الميول والأهواء ، وكبحها وسيلة من وسائل الشعور بالحرية والرغبة فى تحقيقها ، والقانون والآداب من مستلزمات المثل الأعلى للحرية ومن الخطأ الاعتقاد أن وضع حد للنزوات الطارئة والحوافز والرغبات الهدامة يناقض الحرية ، بل علينا أن نرى أن وضع هذه الحدود والقيود من ألزم ما يلزم لسلامة الحرية ، ولا تتحقق الحرية الا فى ظل الدولة والمجتمع .

والمنهج السليم والجدير بالبحث الفلسفى هو تناول التاريخ حينما يبدأ ظهور النزعة العقلية فى الشؤون الدنيوية ، وفى هذه الحالة يتحقق وجود العقل فى الوعى والارادة والعمل ، أما حالة الجهالة المباركة اذا راقنا أن نطلق عليها ذلك الاسم فليست صالحة لتكون موضوعا للتاريخ ، وليست الحرية سوى الاعتراف بتلك الأشياء الجوهرية العالمية مثل القانون والعدالة وجلب الواقع الذى يلائمهما ، وقد تمضى الأمم حياة طويلة الأمد قبل ان تصل الى هذا المصير المقدر لها ، وفى خلال تلك الفترة قدتكون بلغتمستوى من الثقافة ممتازا فى بعض النواحى ، ولكن هذا العصر حسب رأى هيجل خارج عن نطاق بحثه ، والعصور التى مرت بالأمم قبل ان يكتب التاريخ والتى ربما كانت ملأى بالثوراتوالتقلبات والرحلات والانتفاضات تفتقر الى التاريخ الموضوعى ؛ لانها لا تقدم لنا تاريخا ذاتيا اى لا تقدم حوليات ، ويشير هيجل الى كتب الهند القديمة وثراء انتاجها الأدبى وقوانينها وشرائعها القديمة ، وكل ذلك ملائم لظهور التاريخ ، ويرى أنه برغم ذلك لم يوجد التاريخ عند الهنود ، ويعزو هذا الى نظام الطبقات الذى أخذت به الهند ، لأنه يجعل الحقوق المدنية متوقفة على الفوارق الطبيعية ، وللطبقات العليا امتيازات محرومة منها الطبقات السفلى ، ونجم عن ذلك استبعاد العامل الأدبى من الحياة الهندية ومن نظمها السياسية ، وكان هذا عقبة فى ظهور الحرية وظهور التاريخ تبعا لها ، ولا يصبح للأمم تاريخ الا بعد ان تكون لها نظم سياسية .

والتاريخ العام يبين تقدم الشعور بالحرية من جانب الروح وتحقيقها نتيجة لذلك ، وكان لهذا التقدم مراحل ، فالفكرة تتخذ صورا متوالية ، كل صورة منها تسمو على الصورة السابقة لها ، وبهذه العملية ــ عملية التسامى والتجاوز ــ تزداد تأكيدا وثراء ووضوحا ، ولكل أمةعبقريتها القومية التى تبدو فى مظاهر وعيها وارادتها ، وتحمل دياناتها وآدابها ونظمها السياسية وقوانينها الاخلاقية وبراعتها الآلية طابع هذه العبقرية ، والشىء الجوهرى فى التاريخ هو الشعور بالحرية والأوجه التى يتخذها هذا الشعور بالحرية فى تطوره وتقدمه .

وتاريخ الدنيا يشغل مستوى أسمى من المستوى الذى تشغله الآداب ، والآداب خاصة بالأخلاق الفردية وضمير الأفراد وارادتهم الخاصة وطريقة مباشرتهم أعمالهم ، ولهذا كله قيمته والمناسب له من العقوبة أو المثوبة ، ولكن الغرض المطلق للروح الذى تتطلبه وتحققه ــ وما تريده العناية الالهية ــ يسمو على هذه الالتزاماتويعلو على قابلية الاتهام بالبواعث السيئة أو عزو النيات الحسنة الذى يتعرض له الفرد فى العلاقات

الاجتماعية ، وهؤلاء الذين قاوموا على أسس أخلاقية وببواعث شريفة ما استلزمه تقدم الفكرة الروحية أسمى مكانة من الناحية الاخلاقية من هؤلاء الذين كانت جرائمهم قد تحولت الى وسائل أعانت الفكرة الروحية على تحقيق غاياتها ، ولكن فى مثل هذه الثورات فان الفريقين يقفان فى حدود دائرة الوجود المتقلب الفاسد ، وأعمال الرجال العظماء وهم « الأفراد » فى تاريخ الدنيا تسوغها النتيجة التى كانت محجوبة عنهم ، وعلينا حينما ننظر من هذه الناحية ألا نجعل المطالب الأخلاقية تتعارض مع الأعمال الدنيوية التاريخية ومنجزاتها، ويحسن ألا نثير فى وجهها التواضع والاعتدال وحب الانسانية والاحتمال والصبر ، وقد يتجاهل تاريخ الدنيا التجاهل كله الدائرة التى تحوى الاخلاق ، والتفريق بين الاخلاق والأكاذيب السياسية وما يسجله التاريخ هو المجهود الذى تقوم به روح الأقوام ، والصور الفردية التى اتخذتها هذه الروح فى مجال الواقع الخارجى يمكن أن يترك تصويرها للتواريخ الخاصة .

ووجود الدولة لازم لنهضة العلوم والآداب ، والفنون التشكيلية تستلزم تجمع الناس،والفلسفة تظهر حينما توجد الحياة السياسية ، ويشيد هيجل بالآداب الصينية وكتابات كونفوشيوس والديانة الهندية والشعر الهندى وبخاصة الفلسفة الهندية ، ولكنه يرى ان الأمتين ــ الصينية والهندية ــ كانا ينقصهما الشعور بفكرة الحرية ، فقوانين الآداب عند الصينيين خارجية مثل القوانين الطبيعية ، والآداب عندهم مسألة سياسية يراقب مراعاة الأخذ بها رجال الدولة والقضاة ،والرسائل الأخلاقية عندهم تشتمل على أوامر لازمة لتحقيق السعادة ، ومذهب فى مقاومة الميول الحسية ، والرغبات الأرضية ليست غاية الوعى ولا موضوعه وانما هى تقضى على الجانب الروحى والجانب الحسى من الوعى ، وعند الروح أن أسمى ما يمكن بلوغه هو معرفة النفس .

والتاريخ عند هيجل بوجه عام هو تقدم الروح فى الزمان كما أن الطبيعة تقدم الفكرة فى المكان ، واذا ألقينا نظرة على تاريخ العالم رأينا صورة شاسعة الأنحاء للتغيرات والمنجزات وعديدا من الأقوام والدول والأفراد تتعاقب بغير توقف ولا انقطاع ، وكل ما يروق الروح ويشوق وشعورنا بالخير والجمال والعظمة ــ كل ذلك يجد ما يدعو الى ظهوره ، وفى كل الأحداث والتغيرات نرى ما يبذل الانسان من جهدومايعانى من شقاء ، وفى كل ناحية نرى أشياء تثير اهتمامنا وأشياء تثير نفورنا .

ومنظر الأطلال الدوارس يجعلنا نتأمل فكرة التغير فى مظهرها السلبى والسائح الذى يرى أطلال قرطاجنة وبقايا آثار بالميرا وبرسبوليس أو روما يخالجه التفكير فى سرعة زوال الدول والناس ، ويأسى على فقدان تلك الحياة الثرية المزدهرة ، وهو حزن خالص برىء على سقوط ثقافة قومية باهرة ودثورها ، ولكن الاعتبار الآخر الذى يقترن بفكرة التغير هو أن هذا التغير كما يتضمن الانحلال والتدهور فانه كذلك يحتوى على ظهور حياة جديدة وكما ان الموت قد ينبعث من الحياة فكذلك الحياة قد تنبعث من الموت وقد عرف مفكرو الشرق هذا المفهوم العظيم وربما كان هو أسمى ما فى معلوماتهم الميتافيزيقية ، وجوهر الروح هو الحركة والنشاط وبه تحقق امكانياتها وتصبح موضوعا لذاتها وتتأمل ذاتها كأنها وجود موضوعى ، وكذلك شأن روح الأمم

فان لها خصائصها المعينة التى تبدو فى صورة العبادة الدينية والعادات والنظم والقوانين السياسيه والحوادث والانجازات التى يتكون منها تاريخها ، والأمم بأعمالها ، ويفرق هيجل بين روح الأمة المثالى وروحها الواقعى ، فالروح المثالى للأمة اليونانية يبدو فى أعمال سوفوكليز ولديستوفان وتوكونيدس وافلاطون لان فى هؤلاء الأفراد أدركت الروح اليونانية نفسها وفكرت فى نفسها ، وتتميز هذه الروح المثالية من الروح الواقعية .

وهيجل فى الناحية العملية من أنصار الحكومة القوية التى تجمع فى يدها أزمة السلطات ، ولذلك يبدى اعجابه بريشلبيه ونابليون ، وهو لا يعد الحرب شرا ، بل يمجدها وبفضل الحرب يضحى الفرد بنفسه من أجل الدولة ، وهو يرى الحد من سلطة القوة التشريعية واخضاعها للدولة وان تقتصر سلطتها على الاستشارة .

وقد شغل التاريخ القديم الحيز الأكبر من كتابه عن فلسفة التاريخ ، وقد مر مرورا سريعا بالعصر الوسيط ، وهو يمتاز فى رأيه بثلاثة أنواع من رد الفعل ، اولها مقاومة أمم مختلفة لسيطرة الفرانك وثورة الأفراد على قوة الدولة وسيطرتها الشاملة ومقاومة الكنيسة للسلطة الزمنية .

وفى أواخر العصر الوسيط توطد النظام الملكى ، وقويت مكانة الدولة ، والعصور الحديثة تمتاز بحركة الاحياء ، وحركة الاصلاح الدينى ، وقد كان هيجل فى شبابه من المتحمسين للثورة الفرنسية ، وقد ظهر صدى هذا التحمس فى كتابه عن فلسفة التاريخ ، فهو يقول عنها « مفهوم العدالة وفكرتها اكدا سلطتها دفعة واحدة ، ولم تستطع الدعائم القديمة التى أقامها الظلم والجور ان تقاوم هجومها وتثبت له ، واوجد نظام يلائم تصور العدالة وعلى هذا الأساس اقيم كل التشريع الذى جاء بعد ذلك ، ولم يحدث منذ استقرت الشمس فى كبد السماء ودارت حولها الكواكب السيارة ان ادرك الانسان ان وجوده متركز فى رأسه أى فى فكره ، وبالهام هذا الفكر يبنى الانسان العالم الواقع ، ولم يصل الانسان الا فى عهد الثورة الفرنسية الى الاعتراف بمبدأ ان الفكر يجب ان يحكم الواقع الروحى ، ولذلك كان هذا العصر فجرا عقليا باهرا ، وقد اشترك المفكرون جميعهم فى أفراح ذلك العصر ، وحركت قلوب الناس فى تلك الفترة عواطف سامية وسرت حماسة روحية فى شتى أنحاء الدنيا كأنما تم التوفيق بين ما هو مقدس وما هو دنيوى لأول مرة فى التاريخ » .

وهيجل فى كتابه عن فلسفة التاريخ يتناول بعض الأحداث التاريخية من الحين الى الحين ليثبت وجهة نظره ، وقد حفل كتابه بالنظرات الصائبة والخواطر الكاشفة مما جعل الكتاب محتفظا بقيمته منذ ظهوره حتى اليوم .

ويقول هنرى سيبه فى كتابه عن « علم التاريخ وفلسفته » ان تأثير هيجل على الأقل فى هؤلاء المؤرخين الذين ولدوا بعد سنة ١٨٣٠ كان ضعيفا ، أو على الأقل انه لم يؤثر الا بطريق غير مباشر وذلك عن طريق رانكه ، والسبب فى ذلك ان فلسفة التاريخ كانت جد متساوية ولم تعتمد الا قليلا على التاريخ المعين ولذلك ساعدت على تنفير المؤرخين من وجهات النظر العامة وجعلتهم يتجهون الى التبحر فى دراسة التاريخ المحصن ، وكان هذا رد فعل لازم ونافع ، ولكن تقدم الانتاج التاريخى وكثرته قد أوجدا نزوعا واتجاها نحو التركيب ،

ولذلك عاد الباحثون من جديد الى استشارة المفكرين فى الماضى وابيح لهم حق استشارةهيجل نفسه برغم ان نظرياته على ما يبدو تسمو فوق الواقع جميعه » .

وقد أخذ هيجل قوله « ان تقدم المطلق بلغ غايته فى نظام الدولة البروسية الذى كان معاصرا له وعده نقاده تملقا للحكومة البروسية المعاصرة واتجاها رجعيا ، ومن مزايا تفسير هيجل للتاريخ أنه لا يراه مجموع سير الابطال كما رأى كارلايل، ولم يذهب كذلك مذهب الذين يفسرون التاريخ تفسيرا علميا فيرون ان الابطال اداة تنفيذ فى الظروف المواتية والعظماء عند هيجل لا يمكن الاستغناء عنهم وهم فى الوقت نفسه وسائل تنفيذ ، وهم انما يعملون بوحى من روح العصر .

والغاية التى ترمى اليها فلسفة التاريخ الهيجلية هى جعل التاريخ مفهوما ، وان ترينا ان كل ما هو كائن ينطوى على الخير للبشرية طبقا لقولته المشهورة « ان الواقع هو المعقول والمعقول هو الواقع » وما يبدو لنا فى التاريخ شرا ونكرا يتضح لنا وجه الخير فيه حينما نعلم أنه لم يكن منه بد ، واساس هذه الفكرة عند هيجل هو ان تاريخ العالم ليس نهبا للمصادفة العمياء أو مجالا للامعقول ، وانما هو تقدم للروح وكشف للكفايات المستورة والقدرات الكامنة ، ومن ثم يبرر هيجل وجود الدولة بقوانينها ونظمها .

والتاريخ فى رأى هيجل لا يكرر نفسه لأنه فى حركة تقدمية ، وليست حركته حركة دائرية وانما تحركه تحرك لولبى ، وما يبدو لنا مكررا ليس فى الواقع كذلك وانما هو مختلف عن سابقه ، فكل حدث من أحداث التاريخ قد اكتسب شيئا جديدا من الأحداث التى سبقته ، والحروب مثلا تظهر فى تاريخ البشر من الحين الى الحين ، ولكن كل حرب جديدة تختلف من بعض الوجوه عن الحروب السابقةللدروس التى تعلمها البشرمن الحروب التى تقدمتها .

ورأى هيجل فى ان العقل هو المحرك للتاريخ يتضمن ان العقل نفسه يحوى عنصرا لا عقليا ، وهو تصور قد لا يخلو من الغرابة ، والحركة التاريخية حركة منطقية عقلية لان التاريخ ليس وليد المصادفة وانما هو حركة ضرورية محتومة.

وقد وجه الفيلسوف الايطالى بندنوكرنشه نقدا خطيرا لفلسفة التاريخ الهيجلية وقال انهاقائمة على خطأ كبير تورط فيه هيجل ، وهذا الخطأ هو ان علاقة المفاهيم بعضها ببعض علاقة ضدية ، فالخير نقيض الشر والضرورة ضد الحرية والصادق الصحيح ضد الزائف المدخول ، وقد شرح ذلك هيجل فى حديثه عن الحركة الدياليكتيكية التى يخلق فيها كل مفهوم نقيضه أولا ثم يعمل على نفيه ثانيا وهكذا يخلق كل مفهوم نقيضه ثم يقاومه ويتغلب عليه ، ولكن الأشياء الفردية وهى أمثلة للمفاهيم ليست العلاقة بينها علاقة تعارض وانما يتميز بعضها من البعض، أى أن العلاقة بينها ليست علاقة دياليكتيكية والتاريخ هو تاريخ الأعمال الفردية والأشخاص والحضارات فليس فيه اذن دياليكتيك ، فى حين ان فلسفة هيجل التاريخية جميعها قائمة على فكرة الحركة الدياليكتيكية الذى تنتقل فيه صورة من صور الحياة الى نقيضها فنقيض الحياة اليونانية الحياة الرومانية ومن هذا « الموضوع » ومن « النقيض » يظهر التركيب وهو فى هذه الحالة العالم المسيحى .

وقد رد على هذا النقد كولينجوود فى كتابه

عن « فكرة التاريخ » ورأى ان كرونشه فى هذا النقد لم ينفذ الى لب الموضوع ، لأننا اذا تمشينا مع هـذا الرأى امسكنا عن ذكر التعـارض والضدية فى التاريخ ، فلا نستطيع أن نقول مثلا ان الاستبداد والحرية نقيضان وانما نكتفى بالقول بانهما مختلفان ، ولا تتكلم عن الأحزاب المتعارضة مثل الأحرار والمحافظين أو الكاثوليك والبروتستانت وحقيقة اننا لسنا فى حاجة لاستعمال الفاظ التعارض حينما تتكلم عن وقائع التاريخ الخارجية، ولكن حينما تتحدث عن الأفكار الداخلية الكامنة وراء الوقائع فاننا لا نستطيع ان نتحاشى استعمال الفاظ التعارض فالحضارة اليونانية هى تحقيق لفكرة اليونان عن الحياة وتصور اليونانيين للانسان ، والحضارة الرومانية تحقيق لتصور الرومان للانسان والعلاقة بين هذين المفهومين علاقة ديالكتيكية .

وعيب على هيجل قوله ان التاريخ ينتهى فى الحاضر ، ولكن الواقع ان المؤرخ لا يدرى شيئا عن المستقبل ، وليس لديه وثائق ولا مدونات ليتأكد من الوقائع والاحداث التى لم تقع بعد وكلما نظر نظرة فلسفية أدرك ان المستقبل كتاب مطوى بالقياس اليه ، ولابد ان ينتهى التاريخ فى الحاضر لانه لم يحدث شىء بعد لندخله ضمن الوقائع التاريخية أو كما قال زهير بن أبى سلمى

وأعلم علم اليوم والامس قبله
ولكننى عن علم ما فى غد عم

ويرى كولنجوود بحق أن هيجل فى فلسفة التاريخ قد اقتصر على الجانب السياسى من التاريخ فى حين ان التاريخ يشمل تاريخ الفن والدين والفلسفة وهى الموضوعات التى شغلت على وجه التقريب نصف مؤلفات هيجل ، وعلى المؤرخ ان يتصور التاريخ السياسى مكملا للتقدم الاقتصادى والفنى والدينى والفلسفى ، وكارل ماركس الذى تأثر بهيجل أصر على أن التاريخ الانسانى ليس مجموعة متوازية من التاريخ الاقتصادى والتاريخ السياسى والتاريخ الدينى والتاريخ الفنى وانما هو تاريخ مفرد وهو التاريخ الاقتصادى وقد قاده ذلك الى الاسراف فى تقدير أثر العامل الاقتصادى كما غالى هيجل فى تأكيد العامل السياسى فى التاريخ .

نصوص من كتاب «فلسفة التاريخ» :

فى تاريخ العالم تظهر فكرة الروح فى تجسدها الفعلى فى سلسلة من الصور الخارجية ، وكل صورة من هذه الصور تعلن أنها قوم لهم وجود فى الواقع ، وهذا الوجود يدخل فى مقولة الزمان وكذلك فى مقولة المكان على طريقة وجود الأشياء الطبيعية ، والمبدأ الخاص الذى يجسمه كل قوم من الأقوام التاريخية يكون بمثابة خاصة طبيعية لهم ، والروح وهى تتخذ هذه الصورة من صور الطبيعة تعانى أوجهها الخاصة لتتخذ الوجود المنفصل ، لأن التباعد المتبادل هو الحالة المناسبة للوجود الطبيعى الخالص ، وهذه الفروق الطبيعية يلزم أن نعد فى بادىء الأمر امكانيات خاصة تتولد منها روح القوم ، ومن هذه الامكانيات الأساس الجغرافى . وليس يعنينا ان نعرف الأرض التى تحتلها أمة من الأمم باعتبارها الموقع المحلى الخارجى وانما مجال اهتمامنا هو معرفة الطراز الطبيعى للموقع المحلى فى صلته لصميمة بطراز القوم الذين هم نبت مثل هذا الثرى وطبائعهم ، وطبائع هؤلاء الناس هى الحالة والصورة التى تظهر بها الأمم فى التاريخ وتأخذ مكانها فيه ، ولا ينبغى ان نغالى فى شأن الطبيعة ولا أن نغفل

تأثيرها كل الاغفال ، فجو أيونيا المعتدل من المؤكد أنه قد أسهم فى ايجاد الصفاء والرقة التى امتازت بها أشعار هوميروس ، ولكن هذا الجو وحده لا يخلق لنا شعراء من طراز هوميروس ولا يستمر فى الاتيان بمثلهم ، ففى العهد التركى لم يظهر شعراء ، وعلينا أن نضع فى بالنا هذه الأحوال الطبيعية التى تستبعد مرة واحدة من دراما تاريخ العالم ، ففى المنطقة المتجمدة والمنطقة الحارة لا يوجد الموقع المحلى المناسب لظهور أقوام تاريخيين ، لأن الوعى المستيقظ لا يظهر الا محفوفا بالمؤثرات الطبيعية وحدها ، وكل تقدم له هو انعكاس للروح على نفسها فى معارضتها للطبيعة المباشرة ، فالطبيعة من أجل ذلك عامل واحد فى هذه العملية التناقضية ، والطبيعة هى أول نقطة فى الموقف الذى منه يستطيع الانسان ان يظفر بحريته فى داخل نفسها وينبغى ان لا يصبح هذا التحرير صعبا من جراء التجريدات الطبيعية ، والطبيعة فى مواجهتها للروح كتلة كمية ويلزم ان لا يكون لها من القوة ما يجعلها بالغة القدرة ، ففى المناطق المتطرفة لا يستطيع الانسان ان يكون حرا فى حركته ، فالبرد والحر فى تلك الانحاء من القوة بحيث لا يسمحان للروح ان تقيم عالما لذاتها ، ولقد قال ارسطو قديما « حينما تشبع الحاجات الضاغطة يتحول الانسان الى الأشياء العامة والأسمى » ولكن الضغط الشديد فى المناطق المتطرفة لا تخف وطأته ولا يمكن تجنبه ،ويضطر الانسان ان يوجه جل التفاته الى الطبيعة ، الى أشعة الشمس المتقدة أو الى الجليد المتجمد ، ومسرح التاريخ الحقيقى هو المنطقة المعتدلة أو بالأحرى النصف الشمالى منها لان الارض فيه تمثل شكلا قاريا ولها صدر واسع كما يقول اليونانيون ، وفى الجنوب تنقسم الى جملة أقسام وتتجه الى نقاط عدة ، وتظهر هذه الخاصة نفسها فى المنتجات الطبيعية ، ففى الشمال أنواع كثيرة من الحيوانات والنباتات لها خصائص عامة مشتركة ، أما فى الجنوب حيث الأرض مقسمة الى أقسام كثيرة فان الصور الطبيعية كذلك تمثل ملامح فردية يباين بعضها البعض »

تاريخ العالم يتجه من الشرق الى الغرب لان أوروبا هى نهاية التاريخ وآسيا هى ابتداء التاريخ، والشمس تشرق من الشرق وتغرب فى الغرب ، وتاريخ العالم هو تاريخ تعويد الارادة الطبيعية على الخضوع للنظام وجعلها تطيع المبدأ العام والشرق لم يعرف الحرية الا لفرد واحد واليونان والرومان رأوا أن البعض هم الأحرار أما فى عالم الشعب الألمانى فان الجميع أحرار ولذلك أول نظام سياسى معروف فى التاريخ هو نظام الحكم الاستبدادى ثم النظام الديمقراطى والارستقراطى ويتلوهما النظام الملكى .

ــ بين اليونان نشعر بالألفة مباشرة لأننا فى منطقة الروح ، وبرغم أن أصل الأمة اليونانية وخصائص لغتها بعيدة عنا فان ظهور الروح يلزم أن يبحث عنه أول ما يبحث عند اليونان ... واليونان تمثل لنا مظهر الشباب الناضر والحيوية الروحية ، وفى اليونان لأول مرة جعلت الروح نفسها محتوى ارادتها وموضوع معرفتها •